

أرض الميعاد في شعر بياليك
הארץ הסגולה בשיריו של ביאליק
" מתי המדבר האחרונים – אל הצפור " כדוגמאות

الباحث : عدنان عبدالرزاق مصلح

المقدمة

تدور فكرة البحث عن الأرض الموعودة (أرض الميعاد) ، التي وعد الرب ان يعطيها لنبيه (ابراهيم) كما تزعم بذلك التوراة ، وتبدو هذه الفكرة واضحة وجلية في العديد من النتاجات الادبية سواءا عند الشعراء أوالقصاصين اليهود في فترات مختلفة .
ان هذه الفكرة اي (أرض الميعاد) قد ورد ذكرها في العديد من النصوص العبرية في الكتاب المقدس لذلك أثرت هذه الفكرة تأثيرا مباشرا على العديد من الشعراء والقصاصين الذين روجوا لهذه الفكرة وعلى رأسهم ابو الشعر العبري حبيم نحمان بياليك وقد أثرت دراسة هذا الموضوع بثلاثة محاور اضافة الى المقدمة والخاتمة :

- 1 - أرض الميعاد في الكتاب المقدس .
- 2 - حاييم نحمان بياليك ،نبذة عن حياته .
- 3 - قصيدة موتى الصحراء الاخيرون انموذجا

أرض الميعاد في الكتاب المقدس

يزعم اليهود أن الله وعد إبراهيم أن يمنحه الأرض المقدسة المباركة التي تُدعى (أرض الميعاد) ، سواء سكن اليهود فيها أم لم يسكنوا، سيطروا عليها أو أجلوا منها ، ولهم الحق – أن يطردوا السكان الآخرين (الغوييم) * ، وأن الله قد اختارهم من بين الأمم ليكونوا (شعب الله المختار**) .
كما ورد ذلك في (التناخ) *** في سفر التثنية .

" إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من بين جميع الشعوب الذين على وجه الأرض " ¹

لكن اختيار الإله لليهود لم يكن بسبب محبته لهم أكثر من الشعوب الأخرى ولم تكن محبته السبب الرئيسي لاختيار الشعب اليهودي ليكون شعبا مميزا من بين الشعوب ، لذلك نرى في التوراة أن الله أقام ميثاقه مع الشعب اليهودي وان هذا الميثاق واضح تمام الوضوح مع إبراهيم وانه لن يتحقق أي الميثاق إلا بشرط أن يحافظ الشعب اليهودي على أوامر الرب على سبيل المثال:

" فاعلم أن الرب إلهك هو الله الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان للذين يحيونه ويحفظون وصاياهم إلى ألف جيل ، والمجازي الذين يبغضونه بوجوههم ليهلكهم . لا يمهل من يبغضه بوجهه يجازيه فأحفظ الوصايا والفرائض والأحكام التي أنا أوصيك اليوم لتعملها ¹ .

"فقطع بذلك العهد بين الله والشعب بدم الذبيحة"

"واخذ موسى الدم ورش على الشعب وقال هوذا دم العهد الذي قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال" ¹

" وصار الشعب ملك الله وميراثه تعالى"

" لأنك شعب مقدس للرب إلهك ، إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض" ¹

وصار الشعب مملكة من الكهنة
" وانتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة"¹

ونلاحظ في النصوص العبرية الواردة في التناخ بان الإله لم يعد الشعب اليهودي شعبا مقدسا ولا مستحقا لان يكون الشعب المختار ، وبما انه فقد هذه الميزة فانه طرد وتشتت من أرض الميعاد كما طرد آدم من الجنة ، لهذا يخلق الله شعبا جديدا.

" وأخذكم من بين الأمم وأجمعكم من جميع الأراضي وآتي بكم إلى أرضكم وارث عليكم ماء طاهرا فتطهرون من كل نجاستكم ومن كل أصنامكم أطهركم وأعطيتكم قلبا جديدا واجعل روحا جديدة في داخلكم وانزع قلب الحجر من لحمكم وأعطيتكم قلب لحم واجعل روحي في داخلكم وأجعلكم تسلكون في فرائضي وتحفظون أحكامي وتعملون بها وتسكنون الأرض التي أعطيت آباءكم إياها وتكونون لي شعبا وأنا أكون لكم إلهاً.¹

" وأن الله سيقطع عهدا جديدا وسيكون شعبا مقدسا"

" ها أيام تأتي يقول الرب واقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا ، ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي فرفضتهم يقول الرب"¹

" وهذا الشعب يصبح قطيع الله وعروسه"

" اسمعوا كلمة الرب أيها الأمم واخبروا في الجزائر البعيدة وقولوا مبدد إسرائيل يجمعه ويحرسه كراع قطيعه "¹

وهناك العديد من النصوص التي تشير إلى ارض الميعاد في الكتاب المقدس نذكر منها .
" وإذا غويتم ونحتم لكم تمثالا لصورة شيء ما وارثتكم الشر في عيني الرب إلهكم لإثارة غيظه فإني أشهد عليكم اليوم السماء والأرض ، إنكم تنقضون سريعا من الأرض التي انتم عابرون نهر الأردن إليها لترثوها"¹

" ورجعت إلى الرب إلهك وسمعت لصوته حسب كل ما أنا أوصيك به اليوم أنت وبنوك بكل قلبك وبكل نفسك يرد الرب إلهك سبيلك ويرحمك ويعود فيجمعك من جميع الشعوب الذين بددك إليهم الرب إلهك "¹

" في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا : "لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات ، القينيين والقنزيين والقدميين والحثيين والفرزيين والرفانيين والاموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين"¹.

" وكان جوع في الأرض ، فذهب إسحاق إلى ابيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار ، وظهر له الرب وقال ، لا تنزل إلى مصر ، اسكن في الأرض التي أقول لك ، تغرب في هذه الأرض فأكون معك وأباركك ، لأنني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد ، وافي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك وأكثر نسلك كنجوم السماء وأعطي نسلك جميع هذه البلاد ، وتبارك في نسلك جميع أمم الأرض ، من اجل أن إبراهيم سمع لقولي وحفظ ما يحفظ لي أوامري وفرائضي وشراعي ، فأقام إسحاق في جرار "¹.

" وقال الرب لموسى : اصعد من هنا أنت والشعب إلى الأرض التي حلفت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلا : لنسلك أعطيها ، وأنا أرسل أمامك ملاكا ، واطرد الكنعانيين والاموريين والحثيين والفرسيين والحويين واليبوسيين : إلى ارض تفيض لبنا وعسلا"¹.

" وكلم الرب موسى في عربات مؤاب على أردن أريحا قائلا : قل لنبي إسرائيل: أنكم عابرون الأردن إلى ارض كنعان ، فتطردون سكان الأرض من أمامكم – تمتلكون الأرض وتسكنون فيها ، لأنني قد أعطيتكم هذه الأرض لكي تمتلكوها "¹

حيم نحمان بياليك: نبذة عن حياته

شاعر عبري وُلد في قرية (رادي) في روسيا ، استقر في منطقة (زاتومير) ، استطاع في صباه أن يرسم أحلامه من خلال تأملاته في الطبيعة التي كانت تزين منطقة ولادته . والتي أثرت عليه تأثيرا مباشرا فظهر ذلك واضحا وجليا في الكثير من نتاجاته الأدبية .

مات والده وهو في السابعة من عمره ، عاش يتيما مع اخوته الثلاثة برفقة امه ، معاناته تركت بصمة مؤثرة في شعره .

أرسلته والدته إلى بيت جده من أبيه ، حيث لم يتمتع هناك بحياة ميسرة ، إذ تعرض لمعاملة قاسية وصارمة تجاه رغباته وتطلعاته لاسيما من قبل المعلمين الذين ادركوا في وقت مبكر حدة ذكائه ومواهبه وقدراته الكامنة¹ .

نال تعليمه في اليشيباه * في منطقة (فالوجين) مما جعله ينغمس في قراءة كتب الجمارا^{***} وسع بياليك معرفته بالأدب الروسي، وهناك بدأ بالكتابة وسرعان ما نُشرت قصائده في مناطق كثيرة .

كان بياليك يكسب عيشه من خلال تجارة الأخشاب ثم في مجال التربية والتعليم ، ثم أسس مع ريفنسكي دار نشر " موريا " وقد ألف معه كتاب الهجاده^{**} .

تميز شعره بالأصالة من ناحية الشكل والمضمون وتبرز عظمته باستخدام الأسلوب التوراتي والتلمودي في لغته بمقدرة عالية وتبرز في نتاجاته آثار الأدب العبري من العهد القديم ، التلمود^{***} ، المقرأ^{****} ، و أدب القرون الوسطى .

كان مشدودا إلى التقاليد اليهودية المتوارثة والإيمان بالقوى الروحانية لليهود . وان الصفة المتميزة التي عُرف بها بياليك هي انه كان شاعرا عبريا وشاعرا (للاحياء القومي) وهي نتيجة الرباط الوثيق الذي يربط مصير الشاعر مع مصير شعبه¹ .

يعد بياليك من اوائل الشعراء الذين كتبوا قصائد للاطفال ابتداءا من روضة الاطفال والمدارس الابتدائية وقد اضاف العديد من الكلمات العبرية في نتاجاته الادبية وترجم العديد من الكتب ومن القصائد التي كتبها للاطفال :

قصيدة الى العصفور وهي اول قصيدة كتبها في حياته ، هكذا فناء الشعب ، مدينة القتل ، الدجاج والثعلب ، من خلف الباب ، سبت الملكة ، في الجنة الغالية ، عصفور في الجنة ، العصفير في المدينة ، في الايام الاخيرة ، ايام صباه ، اليوم السادس القديم ، البركة وهي قصيدة ذات طابع رمزي ، كتاب النار وهو عمل مهم للقصيدة الشعرية وللنثر ، عبر البحر ، اليوم السادس القديم ، كتب الهجاده ... الخ .

جمعت كتاباته وطبعت باعداد و اجزاء كبيرة وترجمت الى لغات اجنبية عدة¹ .

قصيدة موتى الصحراء الأخيرون
وقصيدة الى العصفورانموذجا

قوموا أيها التانهون في الصحراء
فما زال الطريق طويلا ، وما زالت الحرب طويلة .

عليكم أن تتحركوا كثيرا ، وان تتيهوا في الصحراء
فما زال الطريق أمامكم ممتدا وعريضا

سنتيه أربعين عاما فقط ، بين الجبال –
وفي الرمال دفنا ستمائة ألف من الجيف النتان .

فلنتجاوز جيف المتخلفين .
الذين ماتوا عبيدا – ولنتخط الشهداء !

فليتعفنوا بخزيهم متمددين على رباطاتهم .
التي حملوها على أكتافهم من مصر.

وليحلموا له حلمهم ،
الحلم المليء بالبصل والثوم ،

والقوارير الكثيرة والهائلة المليئة باللحم .
قوموا إذن أيها التانهون ! اتركوا البرية .

وبقدر ما يعلو صوتكم ، سيروا بقوة صامتين!
وحتى لا تغضب خطواتكم الصحراء والنانمين فيها .

فليسمع كل منكم في قلبه صدى دقات قلبه¹

وليسمع كل رجل منكم صوت امر الاله
أذهبوا ! اليوم الى أرض جديدة أنتم عابرون اليها

لا ثم لا للخبز العفن ، نعم للمن والسلوى
تأكل خبز الكادحين وثمر من صنع يديك

لا ثم لا لخيمة الصحراء وغرف النفايات
تبني لك بيتا جديدا وخيمة جديدة تقيم

لأن الصحراء وحدها تحت السماء
وللاله عالم كبير مترامي الأطراف

وما أن تبكي الصحراء ، دما جافاً
ستشعر بأرض جديدة تحت الشمس¹

ودعوة بياليك على ضرورة الهجرة الى أرض فلسطين تكون واضحة وجلية في قصيدته (الى العصفور)
حيث يقول.

سلام كثير لعودتك يا عصفوري الجميل
من بلاد الدفء الى نافذتي
كم اشتاقت نفسي الى صوتك الجميل
غنّ واحك لي يا عصفوري العزيز
عن الارض البعيدة ، عن العجائب
هل هناك في هذه الارض الدافئة الجميلة
تكثر فيها الشرور والمصائب ؟
هل تحمل لي سلام من اخواني في صهيون ؟
من اخواني البعيدين القريبين
واحسرتاه ، انهم سعداء ، هل يعرفون
أنني أقاسي وأشكو من الآلام
هل يعرف اخواني كم كثر هنا أعدائي
وا أسفاه انهم كثيرون أعدائي
غني يا عصفوري بعجائب من الأرض
يسكن الربيع فيها الى الأبد¹
.....

من الملاحظ في هاتين القصيدتين بان الشاعر حبيب نحمان بياليك قد تأثر تأثرا كبيرا بالنصوص التوراتية ولذلك هو يستوحى هذه الفكرة (فكرة ارض الميعاد) من قصة تيه اليهود في الصحراء لذلك نراه يؤكد على ضرورة التخلص من جيل العبودية ، بالتاكيد على ضرورة الهجرة إلى ارض فلسطين (ارض اللبن والعسل) كما تسميها التوراة . لذلك يُعد بياليك الشاعر الرمز الذي ينادي بهذه الفكرة، وان هذه الفكرة تظهر واضحة وجلية في قصيدتيه (موتى الصحراء الاخيرون، والى العصفور)

الخاتمة

- 1 - يزعم اليهود بأن الله أعطى ابراهيم الأرض المقدسة لشعب مقدس هم اليهود ويظهر ذلك واضحا وجليا في الكتاب المقدس في العديد من النصوص التوراتية.
- 2 - يبدو الأثر التوراتي واضحا وجليا في الأدب العبري وقد أثر تأثيرا واضحا في النتاجات الادبية للشعراء والقصاصين اليهود ويظهر ذلك واضحا في النتاجات الأدبية لآبو الشعر العبري حبيب نحمان بياليك .
- 3 - يستخدم بياليك العديد من التعبيرات والكلمات التوراتية في قصيدتيه "موتى الصحراء الأخيرون والى العصفور" بدعوته للعودة الى أرض فلسطين ، أرض اللبن والعسل – مستنبطا فكرته من تيه اليهود في الصحراء الواردة في النصوص العبرية في الكتاب المقدس لذلك يعده اليهود الرمز الكبير الذي ينادي للعودة الى أرض الميعاد .